رحلة سمو الامير محمد علي

الى جنوب افريقية

هذه رحلة علمية رأينا ان لا نكتفي بوصفها في باب الهدايا والتقاريظ بل ان نفرد لها مقالاً خاصًّا نجمع فيه بعض الفوائد التي رأيناها فيها. فان سمو الامير يرتاح الى السفر وألى إشراك القراء في الفوائد التي يراها في اسفاره فيبسطها لهم تمام البسط حتى اذا قرأوها كما قرأناها شعروا كأنهم سافروا معهُ وشاهدوا ما شاهدهُ

ومن مزايا هذه الرحلة انها ليست الى البلدان الاوربية التي اعتاد كثيرون من سكان هذا القطر ان يرحلوا اليها ويزوروا ما فيها ولا الى بلدان شاع وصفها في الكتب والمجلات بل الى جانب من افريقية متصل بنا ولكن قلما نعرف عنهُ ولا نتذكر ان احداً من معارفنا رحل اليهِ كمباسا وزنجبار ودار السلام وموزمبيق ومدن جنوب افريقية حتى رأس الرجاء الصالح. ومن مزاياها ايضاً ان سمو الامير مغرم بالبحث عن النباتات النادرة شديد الانتباه الى كل ما يراهُ حريص على وصفهِ بعد رؤيتهِ واستخلاص العبرة منهُ فتجد رحلتهُ حافلة بذلك كله

غادر ميناء بورت سعيد في السادس من ابريل الماضي على باخرة من بواخر « يونيون كاسل » وقال انها كانت غاصَّة بالسياح واكثرهم من موظفي الحكومة الانجليزية في اواسط افريقية ومعهم نساؤهم واولادهم. ورأى هؤلاء الاولاد يصرخون ويتضاربون من اجل لعبة او برتقالة وذلك امر عاديٌّ فلما يلتفت اليهِ مَن لا يستدلُّ بالصغائر على الكبائر فقال « اذكرني هذا المنظر بان الغيرة والتنازع بين البشر يظهران في الانسان من عهد الحداثة كما ان من الصفات الفطرية تشبُّث المسلوب الشيء باسترداد ما سلب منهُ وانهُ يأبى بكل شعوره وقوته ان يبيت على حق مهضوم او ان يُغلَب على امرهِ »

ولما بلغت الباخرة بورت سودان والتفت الى البر رأى العلَم المصري الى جانب العلم الانكليزي فقال ان ذلك كان داعياً لسروري. ثم التفت الى الزوارق التي تجمعت حول الباخرة فقال انها نظيفة بخلاف ما من السود وقفوا بزوارقهم على مسافة قصيرة من الباخرة بشكل منتظم من غير صياح او تزاحم لنقل الركاب على غير ما في الموانئ الاخرى. وبعد ان وصف كيفية نقل البضائع من الباخرة الى البر فركبات سكة الحديد التفت الى

امير جوهري وهو انهُ رأى هناك كثيراً من المراكب الشراعية مشحونًا بالقطن الوارد من طوكر وأخبر ان في بورت سودان معملاً لنسج الاقمشة القطنية تابعًا لحكومة السودان وقد أرسل في العام الماضي الف طن من بزرة القطن الى مدينة هل بانكلترا لاستخراج الزيت ومن ذلك يعلم مقدار العمل واهميتهُ . ثم وصف الميناء بانها « ميناء حربية لاتساعها وعمقها ولكثرة ما هنالك من فحم كردیف الخاص بالسفن الحربية » وهذا وامثالهُ مما يتعلق بالاتفاقات من حيث علاقة السودان بمصر . واقلعت الباخرة من بورت سودان قال وكان فيها قس انكليزي يدرّس الركاب اللغة السواحلية المنتشرة في شرق افريقية فكان كثير من الرجال والنساء شيبًا وشبانًا يحضرون هذه الدروس فيستفيدون في مدة شهر السفر ما يلزم لهم من هذه اللغة ليتيسّر لهم التفاهم بها على قدر الضرورة لانهم عمليون يعملون لمنفعتهم واني آسف لعدم اهتمام الشرقيين بمثل ذلك

ووصلت الباخرة الى عدن في الثالث عشر من ابريل فوصفها بانها قائمة على صخور سوداء ووراءها ثلاث قمم بركانية قديمة وقد انفقت الحكومة الانكليزية نفقات كبيرة حتى اقامت في بقعة جبلية صخرية مرفأً مهمًّا كعدن فيه كل ما يلزم للمرافىء العصرية . وبعد ان وصف ما فيها قال ان الباخرة تأخرت عن ميعاد قيامها لانهُ عُرض عليها شحنة كبيرة من الملح الى مصاسا وهذا الملح موجود في ضواحي عدن بكثرة ولا وجود لهُ في جنوب افريقية وشرقها ولذلك يصدر بمقادير كبيرة من عدن الى تلك الجهات والتاجر الكبير المشتغل بذلك هو الملاَّ حاج عبد الله

وبلغت الباخرة جزيرة مصاسا في الثامن عشر من ابريل وهي ميناء كينيا واوغندا . قال « نزلنا من الباخرة ومررنا في وسط الجمرك واخذنا سيارة فورد لرؤية البلدة وما فيها فوجدنا الطريق فسيحة مرصوفة بالمكدام وعلى جانبيها اشجار مختلفة ومما دهشنا لهُ ضخامة اشجار التين وشجر البوابب وكل المنازل تحيط بها بساتين . وبعد الظهر ركبنا زورقًا الى الساحل واخذنا سيارة لمشاهدة ما يستحق الرؤية وكان اليوم سبتًا فوجدنا الحوانيت الافرنجية مغلقة كما هي العادة في انكلترا فطلبنا من السائق ان يطوف بنا في الاحياء الاهلية فمررنا اولاً في شارع نظيف منتظم يسكنهُ تجار الهنود وخصوصًا الاغنياء منهم واكثرهم يحترفون الصياغة ويبيعون الحرائر والاقمشة وقد لاحظنا ان كثيراً من المنازل القديمة لها ابواب من الخشب فيها مسامير كبيرة من الحديد والنحاس . وقديمًا كانت صناعة هذه الابواب معروفة في بلاد العرب وانتقلت الى الاندلس والهندية وغيرها من البلاد التي دخلها العرب....

ثم خرجنا الى خارج البلدة بطريق فسيح فيه اشجار كبيرة وارفة الظل حتى تيسر علينا تصوير المناظر بالفوتوغراف وبعد ان سرنا مسافة طويلة وصلنا الى فندق على شاطئ البحر حيث ابتداء الطريق المرصوف بالمكدام. وقد يخيَّل الى الانسان انهُ يسير في وسط حدائق اوربا الكبيرة الجميلة. ومررنا بمنزل رجل سواحلي غني مكتوب على بابهِ آيات قرآنية »

ودعاهُ القبطان لرؤية ما حول الميناء وحول جزيرة مباسا بوتربوت قال «فمررنا اولاً بجانب الرصيف الذي يعدونهُ لرسو البواخر وقد فتحت الحكومة لهُ اعتماداً يبلغ مليون ونصف من الجنيهات ومررنا بجهاز كبير من الحديد يشبه الكباري لنقل الصودا من معملها الى المراكب ثم مررنا تحت كبري السكة الحديدية الذي يصل بين الجزيرة وارض القارة الافريقية فشاهدنا مناظر جميلة فوق التلال والاراضي تكسوها الغابات الخضراء وكثيراً من بيوت الاوربيين تحوطها اشجار جوز الهند » . ولما وصل الى النادي الانكليزي قال « ما كان اعظم سروري برؤية الحديقة الصغيرة التابعة لهذا النادي لان فيها عشرة اصناف من شجر الكروتون الجميل في لونهِ الغريب في حجمهِ اذ كان منهُ ما يقارب حجم شجر النارنج الكبير ولا عجب من اهتمامي بذلك فاني من المولعين بالنباتات وكنت اظن ان ما رأيتهُ بالاسكندرية من اشجار هذا النوع هو اجود ما يكون ولكن لا نسبة بين الذي رأيتهُ في مباسا والذي رأيتهُ في الاسكندرية »

ومرَّت السفينة بمدينة مخيجة ميناء ولاية طنجانيكا التي كانت لالمانيا واخذتها انكلترا منها سنة ١٩١٧ فوصفها احسن وصف . ثم غادرتها الى جزيرة زنجبار . فقال ان منظر غروب الشمس هناك مما يسحر الانظار وكأن الجزيرة بستان واحد اقامتهُ الطبيعة فيرى الناظر الاشعة الذهبية تعلو اللون الاخضر الجميل . ثم اسهب في وصف زنجبار وما لقيهُ من سلطانها من الحفاوة والاكرام . ومما قالهُ ان الطرق خارج المدينة واسعة مرصوفة بالمكدام تضاهي احسن طرق اوربا على جوانبها الرياض والبساتين وكأنها كلها حديقة غناء وذكر من اشجارها شجر القرنفل. ورأى هناك الجامع الكبير الذي بناهُ الطيب الذكر آغاخان الهندي جد آغا خان الحالي . واقام معهُ مكتبة للهنود وناديًا يجتمعون فيهِ

وغادرت الباخرة زنجبار في الرابع والعشرين من ابريل الى دار السلام التي كانت عاصمة المستعمرة الالمانية في شرق افريقية وهي الآن تابعة لانكلترا فقال ان عمر هذه المدينة السيد مجيب سلطان زنجبار مصَّرها سنة ١٨٦٣ وتركها سنة ١٨٨٧ فجاءها رجل الماني اسمهُ كاربس وبعد مجيئهِ بسنتين ارسلت الحكومة الالمانية قوة عسكرية

فاحتلتها واعلنت امتلاكها » . ثم غادرتها الباخرة الى موزمبيق عاصمة مستعمرة البرتغال فقال ان « فيها قلعة قديمة بناها البرتغاليون بين سنة ١٥٠٨ و ١٥١١ وجلبوا حجارتها من بلاد البرتغال مسافة ٨٠٠٠ ميل وفي ذلك مفخرة عظيمة تظهر مقدرة امة البرتغال في ذلك العصر عصر قوتها ومجدها » . وفي ٣٠ ابريل بلغت الباخرة لورنسو ماركيس فغادرها هناك بعد سفرة دامت ٢٤ يوماً . وهذه المدينة برتغالية لكنها تعدُّ ميناء مهمة للترنسفال فاستقبل هناك بالترحاب والاحترام الذي يليق بوكامير مصري جليل القدر ولو كان مسافراً باسم مستعار وركب منها قطار سكة الحديد الى الترنسفال والظاهر انها كانت غرضهُ الاهم من هذه الرحلة فقال في وصفها « و بدخولنا اراضي الترنسفال وجدنا فرقاً من جهة دقة النظام وجودة الاراضي وثروتها الطبيعية وكان القطار يسير الى جانب نهر على شاطئهِ اشجار كبيرة . ولم نجد في مستعمرات البرتغال مزارع كبيرة كمزارع الترنسفال فقد مررنا بكثير من المزارع الشاسعة المنتظمة وفيها كثير من شجر الليمون والباباز وهناك مزارع للقطن ولم نستطع النوم ليلاً بسبب هزات القطار العنيفة عند وقوفهِ وقيامهِ وكان البرد شديداً ولما وصلنا بريتوريا علمنا من جرائد جوهانسبرج ان البرد بلغ تلك الليلة اشد ما بلغهُ منذ اربع سنوات »

واسهب في وصف بريتوريا فقال انها العاصمة الادارية لحكومات جنوب افريقية وسكانها ٤٥١٦٣ من البيض و ٢٨٦٠٠ من الزنوج . ودار الحكومة فيها بلغ ما انفق على بنائها نحو مليونين من الجنيهات وهذا ليس بكثير بالنسبة الى فخامة البناء وثروة البلاد وكنت اودُّ ان ارى مثل هذه الابنية العظيمة في القاهرة عاصمة مصر

وذكر ما لقيهُ فيها من اكرام حاكم جنوب افريقية العام اللورد اتلن شقيق ملكة الانكليز وزوجهِ اخت ملك الانكليز وقد لقب بلقب اللورد اتلن لما ترك الامراء القابهم القديمة بعد الحرب . وما لقيهُ ايضاً من الجنرال سمطس والميجر انكسدر الذي كان ياوراً للسر ريجنلد وتجت باشا

ومما ذكرهُ واستوقف نظرنا بنوع خاص ان نبات المراعي هناك تنقصهُ مادة الفصفور الضرورية لتغذية الحيوان فلذا تجث البقر عن عظام الحيوانات لتأكلها لما فيها من الفسفور والمواشي التي تضعف من قلة الفسفور تعطى مسحوقاً منهُ بكميات محدودة فتراها تنتظرهُ بتلهف شديد في الساعة المعينة لتناولهِ

ثم غادر بريتوريا ماراً بجوهنسبرج وقصد شلالات فكتوريا اعظم شلالات في

المسكونة وهنالك فندق قال انهُ بديع الشكل مستكمل الاسباب الراحة والنظافة وان الانسان ليعجب ان يرى بلاداً كانت في الماضي القريب مرتعاً للوحوش ووطناً للزنوج لا امان فيها ولا فرق بين وحشها وانسها بلاداً كانت هذه حالتها تتحول الى حالتها اليوم فيسكنها المتمدنون ويؤمها السائحون وفيها ما يكفل لهم الطمأنينة والراحة وهذا الفندق العظيم الحديث النظام ووجدنا ان كل الخدم فيهِ من الزنوج الا القليل من الافرنج ووجدنا فيهِ خادماً من زنجبار يتكلم العربية وكم يسر الانسان اذ يرى من يتكلم بلغتهِ في بلاد غريبة نائية

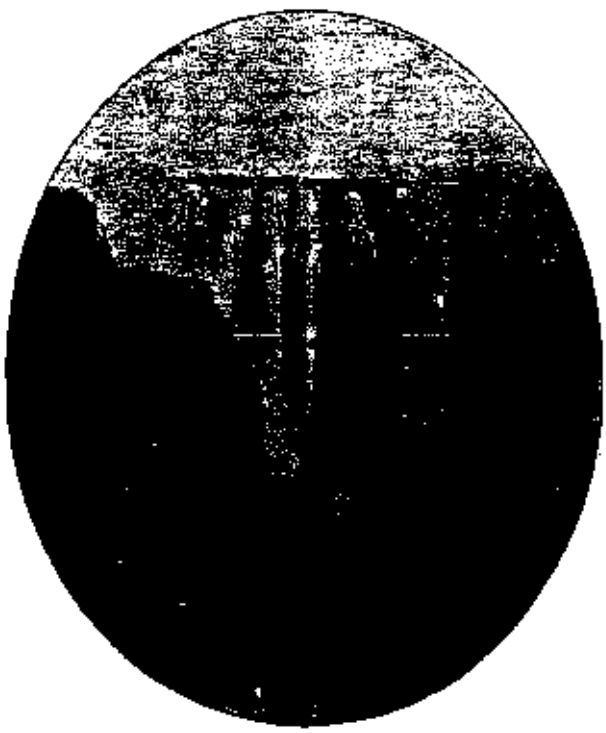

شلال فكتوريا ذبلما نصب الكبري عليه

ثم وصف ذهابهُ الى الكبري (الجسر) الذي اقيم فوق الشلالات وقال انهُ هو معلق يبلغ ارتفاعهُ في منتصفهِ عن سطح الماء خمسماية قدم فهو اعلى كبري في المسكونة ويبلغ طولهُ ٦٥٠ قدماً وقد تم عملهُ سنة ١٩٠٤ . ثم وصف هذه الشلالات فقال :

يبلغ عرض نهر الزمبيزي قبيل الشلالات ميلاً وربعاً لكثرة ما فيهِ من الجزائر ثم ينقسم الى اربعة اقسام فالقسم الجنوبي يسمَّى شلال الغريت ويبلغ عرضهُ ٩٠ قدماً وتسقط منهُ المياه الى عمق ٣٥٠ قدماً ثم الشلال الكبير الذي بين جزيرة لفنجستون وجزيرة الشلال وهذه تقسمهُ صخرة كبيرة الى قسمين القسم الاول عرضهُ ٥٧٣ يرداً والآخر عرضهُ ٣٢٥ يرداً . ثم شلال قوس فرح وعرضهُ ٦٠٠ يرد وبعدهُ الشلال الشرقي المذكور آنفاً وكان لجلال منظرهِ في النفس ما يورثها اعترافاً بقدرة الخالق وعظمتهِ وبهر العين بجمال الطبيعة.

وبعد الظهر اشير علينا بالذهاب لرؤية الغابة الممطرة او غابة الامطار فارتدينا المكنتوش (اي بالطو المطر) على ثياب خفيفة وقبعات خصيصة للمطر وقمنا في الساعة الرابعة بعد تناول الشاي فوصلنا الى نقطة في اول الكبري ومن هناك رأينا عظمة المنظر المهيب الهائل وكان المطر يهطل علينا بغزارة وهو ليس مطراً عادياً وانما هو المياه المتصاعدة من قاع الشلال بشكل البخار بعد سقوط المياه واصطدامها بالحجارة وما ينشأ عن ذلك من ضغط الهواء الذي يقذف برشاش الماء الى ارتفاع يبلغ من خمسين متراً الى مائة متر فيكون منه سحابة ممطرة باستمرار . ثم دخلنا غابة كثيفة من مختلف الاشجار فوجدنا فيها طرقاً متجهة نحو الشلال فسرنا في احداها فرأينا قوس قزح كامل الدائر كحلقة تمرّ الى جانب قدمي والى جانبه قوس قزح آخر . . وقيل لي ان هذا القوس يرى ايضاً في الليالي المقمرة . ثم مررنا في سيرنا وسط الغابة باشجار من الفيكس والنخيل وغيرها الى ان وصلنا الى نقطة رأينا منها الشلالات الاربعة فاذا المنظر مدهش يأخذ بالعقول والابصار وينطق بعظمة الخالق

ومضى من هناك الى بولاوايو ومرّ بمدفن سسل رودس ولتي زعماء الجمعية الاسلامية في مدينة بولاوايو ومنها الى جوهانسبرج . وقال انها مدينة حديثة انشئت سنة ١٨٨٦ ويبلغ عدد سكانها الآن ١٥٤ الفاً من البيض و١٣٨ الفاً من الزنوج والشرقيين . وسبب هذا العمران السريع اكتشاف الذهب في ارضها سنة ١٨٨٦ ويقال انهُ بعد تسع سنوات من تعميرها بيعت قطعة ارض للبناء في شارع من شوارعها باثنين وعشرين الف جنيه وبعد سنتين بلغ ثمنها اربعين الف جنيه . وسنة ١٩١٥ اشترى احد البنوك قطعة ارض مربعة طولها خمسون قدماً في مثلها عرضاً بمبلغ خمسة وعشرين الف جنيه

وقال ان جوهانسبرج اكبر مدينة افريقية بعد القاهرة من حيث مساحتها وعدد سكانها وقد بلغت هذا المبلغ من الاتساع والاهمية في خمس وثلاثين سنة وكانت قبل صحراء قاحلة فاصبحت مدينة جميلة ذات بساتين واشجار تحوطها غابات منشأة بيد الانسان وهي مركز تتصل به اكبر مدن اواسط افريقية وجنوبها . وفيها ابنية فخمة حديثة الطراز منها دار المحافظة وقد انفق على انشائها ٤٥٠ الف جنيه ودار المحكمة العليا أنفق على انشائها ١٣٥ الف جنيه ودار البورصة ومدرسة المعارف ودار الكتب ومستشفى كبير انفق على انشائه ٢٠ الف جنيه ومسلخ كبير انفق على انشائه ٥٠٠ الف جنيه وفيها ايضاً ميادين لسباق الخيل والالعاب الرياضية وكل ما يلزم لمدينة عظيمة حديثة

ثم وصف ما شاهده في مناجم الذهب وسنأتي على تفصيل ذلك في الجزء الثاني